دور الأدب في معركة فلسطين

بقلم سميرة عزام

لفلسطين من بين موضوعات هذا المؤتمر موضوعان ، ونستطيع ان نقول تجوزا ان لها كل الموضوعات ، فانفعال الواقع القومي بنكبة فلسطين قد حرك كل هذه المخاضات والتحولات التي فرضت منطلقا جديدا للوجود العربي ، وفرضت بالتالي ان يكون الموضوع العام للمؤتمر وتفريعاته هي المحاور الفكرية للمجتمع العربي الحديث .

ولست اريد من هذا الموضوع الذي اخترته او اختير لي ان اتوسع لاصل الى تحديد الترابط العضوي بين هذه جميعا وبين موضوع فلسطين ، ولا ان اتوسل الى الحديث عن دور الادب مستقبلا بمقدمة تتناول ما تركته النكبة في ادبنا من ملامح ، فلهذه موضوع مستقل ، ولكنني على اية حال لا استطيع ان اخلص لموضوعي دون توطئة قصيرة .

دور الادب في معركة فلسطين واستعمال كلمة معركة هنا بدلا من كلمة قضية يحمل في تضاعيفه ايحاء قائما على حقيقة الشعور بان حتمية المعركة قدر من اقدار هذه الامة تمتحن فيه اصالتها وجدارتها بالحياة . وبقدر وعينا لهذه الحقيقة ينبغي ان يأتي انفعالنا بها . ومن هذا العمل الانفعالي تتفجر الوان التعبير عن ملامحها .

ان الفرق النوعي في النظرة والاحساس والفكر الذي يجب الا تفرضه طبيعة الانفعال بفلسطين كنكبة قائمة ، والانفعال بالقضية كمعركة حتمية ، يفرض علينا الوانا من الاستجابة لا تقتصر على اطراح التفجع والندب فحسب ، بل تقتضي حسا شموليا ونظرة استشرافية لا بد للفكر وللادب من ان يعانيهما ليصح اعتبارهما اداة من ادوات المعركة ، اداة تحمل في تضاعيفها التنويه بوزنها وقيمتها الذاتية .

لو رجعنا للمظاهر الكبرى التي تناولها الادب منذ النكبة حتى اليوم لرأينا ان الحصيلة كانت عموما هامشية تترنح في الظلال ، او تترجم فورات آنية تقول ما لديها ثم تنطفىء فكأني بصاحب الاثر لا يرمي الا الى التدليل مرة او مرتين على انه ليس غائبا عن قضية من قضايا العصر الكبرى ، وليس حظ لون ادبي بأفضل من حظ لون اخر ، فما يثبت من مئات القصائد لا ينهض شاهدا على فضل الشعر ، وما يصح اعتباره رواية بالمفهوم الجدي للكلمة يضيع في ثنايا روايات وقعت في مفازات التسطح ، ولا ندري بماذا يمكن ان نعتذر عن القصة القصيرة ، اما البحوث فاننا لو اسقطنا من الحساب تلك الابحاث التي توسل بها اصحابها لنيل درجة علمية ، او التي قامت اصلا غاية دعاوية ، لرأينا ان الفكر كان شبه غائب عن هذه القضية .

نقول ذلك ونحن نعلم ان التعميم قد جار على بعض الاعمال الاصيلة وفوت علينا فرصة التنويه بكتاب وشعراء عاشت القضية في وجدانهم ووسمت اكثر انتاجهم بميسمها . ولكن النسبة تظل في النتيجة دون هذه القضية بابعادها السياسية والانسانية الخطيرة .

بوجه من نفجر الاتهام ؟ يبدو ان التعقل يستلزم الا تكون ادانة قبل ربط النتائج بالاسباب في شيء من روية التحليل وهدوء النظرة .

ان فترة ما بعد النكبة بما طرحته من تبدلات جذرية في السياسات والكيانات والمجتمعات قد مست فيما مسته وضع الادب عامة ، وفرضت عليه ان يتفاعل مع ما حوله فيقوم بتجارب يستخلص منها قيما جديدة ، ويبحث لنفسه عن شخصية جديدة في المضامين والاشكال ، فما اصاب الناحية العامة لا بد وان يظهر ايضا فيما يتصل بقضية فلسطين من اثار ادبية . وقد لا يكون من الحق ، ونحن نعترف بان الفترة كانت فترة تجربة وانصهار ، ان نطمع باكثر مما يمكن لطبيعة الفترة ان توفره ولكن دون الشطط في الاتكاء على الظروف كعذر اتكاء يحول بيننا وبين عملية رصد لهذه الملامح التي برزت لنتمكن من سبر امكاناتها ، وتحديد القسط الذي يمكن ان ينهض به الادب في المعركة .

وقد يكون منطقيا هنا ان ابدأ بالاديب الفلسطيني بين ادباء العرب فأتساءل الى أي مدى توافر على الانفعال بالنكبة ، وهي نكبته اولا ، والى اي مدى استطاع ان يكون اصيلا وشموليا في وسائل تعبيره ؟

يبدو لي هنا ان سؤالا معينا يفرض نفسه بقولنا وهل كانت هنالك في فلسطين قبل النكبة حياة ادبية بالمعنى الكبير لهذه الكلمة ؟ الواقع ان خروج البلاد من الحكم العثماني ، وهي فترة تتسم بالانحطاط الفكري في اجزاء الوطن العربي عامة ، لتبتلى بالانتداب البريطاني وما انطوى عليه من نوايا التوطين الاسرائيلي قد واجه البلاد بوضع يعتبر معه الفكر والادب ترفا لا ينال . ولقد كان الشعر

بحكم طبيعة ارتكازه على اللحظة الانفعالية اكثر حظا بالبروز من غيره من الوان الادب ، ولقد كان في فلسطين شعر وشعراء قالوا في المناسبات القومية ، وتركوا لمعارك الاهلين مع السلطات ، ولمآثر ابطال الجهاد ، سجلا حافلا ، ولكن القصة والرواية بمفاهيمهما الحديثة لم تكونا لونا ادبيا متداولا ، ثم حلت النكبة لتشرد من الاهلين من شردت ولتفرض مرحلة ذهول تأرجح فيها الفلسطينيون بين اليأس والاحساس الكلي بالضياع ، وكان طبيعيا ان يشعر الادباء بعقم الكلمة في موقف اهدرت فيه كل القيم فسكت بعضهم يأسا وسكت البعض الاخر انشغالا بمطالب العيش في الاماكن التي نزحوا اليها ، وخضوعا لتحديات تتصل بشؤون حياتهم اليومية وحياة اسرهم ، او لوجودهم في بيئات تحرم عليهم اصلا الكلام في قضيتهم لانها تعتبر ذلك كلاما في السياسة .

وفي فترة ما بعد النكبة كانت بعض المواهب الفلسطينية الناشئة قد استكملت بعضا من اسباب النضج ، وقد اتاح لها انفعالها بالحياة العربية الجديدة واتصالها بمرحلة التجارب ان تكون اقل يأسا واكثر انفتاحا ، وان تستمد قيما لا تلغي اهمية تحريك المشاعر عن طريق تصوير النكبة شعرا ورواية وقصة تصويرا حمل شيئا من ملامح الاصالة توفر له من المعاناة الشخصية ، والتصاق هؤلاء الادباء التصاقا اوثق بطبيعة المأساة الا ان انفعالهم بالحياة في البيئات الجديدة قد زجهم في دوامة من القضايا صرفتهم عن التماس موضوعاتهم من المعاني المباشرة للنكبة ، كما ان الحس الشمولي والاستبطان الذي يلم بشتات الابعاد ظل مفقودا ، وظلت النكبة وظلالها اكبر بكثير من كل ما قاله ابناؤها مجتمعين . فهل وفق غير الفلسطينيين — وقد كانت ظروفهم افضل على اية حال ، — حين قصر اولئك عن الانصباب انصبابا زخما في مسارب القضية ؟

الواقع انهم ، نقول ذلك دون ان نلغي من الاعتبار فترة التجربة التي اشرنا اليها ، لم يكونوا احسن حظا ، كان ضعف التمثل للتجربة واضحا في اكثر ما كتبوه ، وكانت آنية الاستجابة لا توفر اكثر من نزوات ادبية تفتقر الى الرؤيا الصحيحة او المعاناة الحق ، وكان سوء الفهم العام للنواحي السياسية او الاجتماعية للقضية يفضح نفسه في ثنايا العمل الادبي لدى بعضهم .

وكنا نتساءل ونحن نرى الصهيونية العالمية تنشط على كل الصعد ، ولا تستثنى الادب بل لا تقصر في شراء الاقلام والمواهب ، الم يكن حجم النكبة كافيا بحيث يهز ادباءنا وفنانينا العرب هزا ويدفعهم الى الدوران في فلكها فلا يكتفوا بتناولها من بعيد او بشكل جانبي لا يقرب الجذور ولا يتعمق الاشياء ؟

ومرة اخرى انبه الى ان هذا الحكم يحتمل بعض الاستثناءات ولكن هل نستطيع ان نعتبر قصيدة تقال او تنشر ، او رواية تعرج تعريجا هامشيا على قضية فلسطين، او فصلا في كتاب اسهاما حقيقيا في القضية ؟

نحن لا نريد ان نفمط اصحاب هذه المنجزات ما انجزوه ، ولا صدق عاطفتهم فيما قالوه ، ولكن الابعاد التي نريدها لمعالجة هذه القضية اوسع بكثير مما استطاعت هذه المنجزات ان تبلغه .

ان التفاعل الحقيقي بين القضية وبين الاديب العربي ما يزال بعد سبعة عشر عاما من قيام النكبة ، وبعد توفر المنظور الذي يتيح شيئا من هدوء التأمل ويفرض نوعا من عمق الانفعال غير المتعلق باهداب الانية ، ما يزال غير قائم . ولا ارى اسباب قيامه مهيأة الا عبر ظروف غير التي نرى ، ظروف يستطيع الاديب اذا كان مستحقا اسمه ان يسعى لتوافرها ليكون شاهدا حقا من شهود القضية الكبرى ، وقد يحسن ان نجمل هذه الظروف في نقاط اهمها :

١ — تبصر الاديب العربي عامة والفلسطيني خاصة بنواحي النكبة وابعادها والتفاعل معها بشكل اوثق .

٢ — اتاحة المجال له لمشاهدة اثار النكبة واننا لنتساءل كم واحد ممن عرضوا للمخيمات في اعمالهم قد عرف هذه المخيمات ورأى كيف تأسن الحياة فيها وتتحول القضية بسياسة مرسومة في الخارج ، ومدسوسة في رغيف الاعاشة ، من قضية وطن الى قضية لقمة .

٣ — ارتفاع الاديب العربي فوق الاحداث القصيرة التي يتأثر بها من تصرفات فلسطينية فردية لا يمكن الا ان تظهر في كل مجتمع انساني يضم انماطا شتى من النفوس والاتجاهات ، تصرفات قد تنجح في ان تحجب عن الاديب الرؤيا الشاملة لطبيعة المشكلة الاساسية في حين يتوجب عليه ان يرتفع عن التأثر بها .

٤ — عدم قصر احساس الاديب بالنكبة على مناسبات معينة بل تعدو القضية لديه قضية معايشة يومية ، والواقع اننا لا نطلب شيئا يعجز الاديب الحق فان تجاوبه يجب ان يتم ابدا على نطاق الاحساس الشامل لا بمشكلة فلسطين فحسب — وان قدمت في نظرنا على غيرها من المشكلات — وانما بجميع قضايا التحرر في العالم .

٥ — اعادة الايمان الى النفوس بجدوى وقيمة الادب كعامل من عوامل قضية ما يبدو ان القوة هي الحل الامثل والوحيد لها ، في حين ان طرح اي عمل ادبي يجعل المشاعر متوفرة بشكل يسهل تعبئتها وتوجيهها في طريق الحل الذي تبدو القوة عامله الوحيد .

ان فقدان الايمان بقيمة الادب في المعركة يوازي في خطأه ظن الاديب بان كونه صاحب قلم يجعله يطمئن الى انه ادى دورا يساوق في شرفه دور مجند يموت في الساح . ان الرصاصات التي مات همنغواي وهو يحمل اثارها في الحرب الاهلية الاسبانية خير شاهد على بطلان هذا الشعور الخادع ، ولماذا لا نتناول اسما وثيق الارتباط

بالموضوع هو الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود صاحب قصيدة (ساحمل روحي على راحتي) ، والذي حمل روحه فعلا ليقضي في معركة من سلسلة المعارك التي نشبت في ثورة ١٩٣٦ .

٦ — ان يكون للاديب العربي وضع المفكر بحيث يستشرف ويوجه ويحمل في تضاعيف ادبه ايحاء بما يجب ان تكون عليه المعارك السياسية فاذا قبلنا هذا الفرض وجدنا ان الاديب يحمل ارهاصات نبوءة ، ويعكس احساسات جماعية تستطيع السياسة ان تستهدي بها في رسم خطط الحاضر والمستقبل .

فاذا كانت هذه هي العوامل التي لايمكن ان يقوم بدونها اديب في مستوى القضية وجدنا مسوغا لذلك التساؤل المتكرر عن واقعنا في الادب القومي من هذا الافق الرحب.

فاذا كنا واقعيين بحيث نعترف اننا دونه بكثير ، فان علينا في الوقت نفسه ان نقر ان بلوغه لا يتم دون التكامل بين عنصرين لا يقوم احدهما دون الاخر ، المادة الخام ، وتتمثل في الاديب ، والظروف وتتمثل في المجتمع وما يقوم فيه من نظم ومؤسسات رسمية واهلية .

لنفرض انه وجد الاديب الحق ، وان هذا الاديب قد استطاع ان يطرح عملا جديرا بالحياة ، فما هي ردود الفعل التي يلقاها في مجتمعاتنا ؟

أذا كان حسن الحظ وجد في احسن الظروف ناشرا يطبع له الفي او ثلاثة الاف نسخة يتداول نصفها الادباء هدايا ويضيع نصفها الاخر في المستودعات فكيف يمكن هنا للعمل ان يخرج الى النطاق الشعبي ليلعب دوره كعامل من عوامل التعبئة اذا لم تتصل اسباب حياته بوسيلة نشر شعبية كالسينما أو التلفزيون أو الراديو ، ولم يعرف طريقه الى الرأي العام العالمي عن طريق الترجمة والرقوق السينمائية ؟

لا يمكن بهذه البساطة ان نرى القضية من زاوية واحدة ، زاوية الاديب فحسب ، فالمؤسسات — بنسبة اكبر من تحمل روح المسؤولية — مطالبة بحمل العبء . فالجهد الفردي يظل فرديا اذا لم يجد له متنفسا من خلال ما تملكه المؤسسات من وسائط .

ان الحكومات ، ومعها جامعة الدول العربية ، وما ينهض وراء الحكومات العربية والجامعة من وسائل الاعلام والنشر والبث ، مدعوة الى الشعور بضرورة تسخير كل هذه الوسائل والامكانات لعملية تعبئة فكرية وروحية واسعة النطاق . عملية مدركة للاخطار التي تهدد الوجود العربي من اساسه ما لم تكن الجماهير العربية على مستوى الشعور بمسؤولية الدفاع عن هذا الوجود . عملية تحيط بالوسائل وتفيد منها وتستثمرها على احسن وجه ، وتترجمها على الصور التالية :

فرض القضية على مناهج المدارس والمعاهد والجامعات ، ووضع مقررات مدرسية للمطالعات تضم مختارات من الادب القومي الفلسطيني .

— رصد جوائز سنوية لتشجيع الدراسات وكتابة المسرحيات والروايات والقصص ودواوين الشعر وكل ما يتصل بالادب القومي .

— استكتاب اقلام تكتب بلغات اجنبية في موضوعات تتناول القضية الفلسطينية وتشرح نواحيها . وترجمة اثارنا الى اللغات الاخرى ، والعمل على نشر هذه الدراسات بحيث تؤدي الغاية منها .

— أنتاج سينمائي تدور موضوعاته حول النواحي الانسانية لقضية فلسطين له من القيمة الفنية ما يسمح له بان يعبر الحدود ، واهدافه للحكومات والشعوب الصديقة، وتذليل اية عراقيل أقتصادية او سياسية قد تنهض في وجهه .

— انشاء مراكز للبحوث العلمية في موضوع القضية، ومساندة المراكز القليلة القائمة حاليا وتوسيعها .

— مساندة الصحف والمجلات والنشرات الدورية التي تحتضن قضايانا القومية بحيث تقوى على تطوير نفسها بصورة تستطيع معها استقطاب كتاب من مستويات فكرية رصينة .

— احتضان الادباء والمفكرين الاجانب المتعاطفين مع القضية الفلسطينية لتعويضهم عن الضغط والاضطهاد الذي يتعرضون له في المناخات التي تنشط فيها الصهيونية العالمية .

— استغلال عملية التبادل الثقافي مع الدول في تقديم الادب القومي باطاراته المختلفة على غيره من الاثار .

— أفساح المجال بصورة أكثر جدية في الاذاعات العربية المختلفة لما يسمى برنامج بحيث يتسع لتجسيد اعمال ادبية ذات قيمة تفلح في خلق التعاطف اللازم بين المستمع والقضية ، وكذلك استغلال التلفزيون وتسخيره لعملية التعبئة المطلوبة .

هذه هي المقترحات التي تخطر في البال على ضوء ما نملك من وسائط ووسائل ، والافادة منها بصورة صحيحة وفعالة ترتبط دون شك بمدى ما تشعر الحكومات العربية انها جادة في الاعداد لمعركة .

فاذا ما رحب الافق امام الاديب العربي وتحسنت الظروف بحيث تغدو مؤاتية لخلق شيء ذي قيمة . ولم تحد العقبات السياسية والمادية من انطلاقه وجد انه مدفوع الى تكريس فنه لخدمة العمل القومي . ونحن في نهاية الامر لا نستطيع ان نعترف بانه انسان ذو مطالب ، وان تحقيق مطالبه يوفر له مناخا حياتيا على التثقف والانتاج ، فلا يذل قلمه اذلالا في النوافل ، ولا تدفعه حاجته المادية الى التماس الجزاء من جهات اجنبية تغدقه عليه على حساب كم فمه عن معالجة قضايا القومية .

سميرة عزام